

قالت الملكة باسمه: «من يدري؟! لعلك تفهم منه كل شيء في وقت قريب أقرب جدًّا مما تظن، ولكنك تنكر عليّ ردِّي للسفراء ومعاملتي للملوك بغير ما جرى به العرف، وحلمي إياهم على ما لا ينبغي لهم من الذلة والهوان، وقد كان هذا حقًّا لو أنني أثرت عليهم حربًا ظالمة، وقد كان هذا حقًّا لو أنهم أثاروا عليّ حربًا دعا إليها اختلاف مصالح الشعوب وتباين منافعهم وتقديرهم لهذه المصالح والمنافع، سواء أكان هذا التقدير خطأ أم صوابًا، ولكنهم أثاروا حربًا ظالمة لم تقتضها مصلحة عامة ولم تدع إليها منفعة عاجلة أو آجلة لأمة من أممهم أو شعب من شعوبهم؛ إنما اتبع كل منهم هواه وركب رأسه وانقاد لشهوته الجامحة.

وقد كنت تذكّرني يا أبت بأن هذه الحرب إنما أثّرت لأن هؤلاء الملوك يحبونني ويخطبونني، وأنا لا أحب منهم أحدًا ولا أرضى لنفسي من بينهم زوجًا، وكنت تذكّرني بأن هذا الأمر لا يعني رعيّتنا ولا رعايانا من قريب أو بعيد، فهذا الظلم الصارخ، وهذا العدوان المنكر، وهذا الإهدار لحقوق الشعوب، وهذه التضحية الأثمة بالنفوس التي أمر الله أن تُعصَمَ والدماء التي أمر الله أن تُحَقَّقَ والحرّمات التي أمر الله أن تُرَعَى، في سبيل شهوة فردية لا تعتمد على ما يشبه الحق أو العدل؛ كل هذا خليك أن يهدر حق مقتريه في طاعة الشعوب، وكل هذا خليك أن يلغي حق مقتريه في النهوض بأمر السلطان.

فهؤلاء المعتدون عندي ليسوا ملوكًا ولا أشباه ملوك، وإنما هم عندي طغاة ظالمون، فإن للملك حقوقه، ما في ذلك شك؛ ولكن هذه الحقوق رهينة بواجبات ينبغي أن تؤدي؛ فإذا ضيعت الواجبات أهدرت الحقوق.

فالسفراء الذين أقبلوا عليّ ثم ردُّوا مخذولين على سادتهم، لم يكونوا سفراء ملوك يأخذون الملك بحقه، وإنما كانوا سفراء طغاة قد فقدوا حقوقهم على رعيّتهم كما فقدوا حقوقهم على نظائريهم، وما أكره أن تدور الأيام عليّ بمثل ما دارت به عليهم إن اقترفت من الإثم مثل ما اقترفوا، واجترحت من الذنب مثل ما اجترحوا، وجنيت من السيئات ما يجعلني لذلك أهلاً.

وقد تعلمت منك يا أبت أكثر مما تظن أنني تعلمت، وأول ما تعلمت منك أن آخذ ملكي بحقه، وأن أنهض بما عليّ من واجب قبل أن أطلب ما لي من حق، وأن أبيع للشعب معصيتي والخروج عليّ وإهدار سلطاني عليه، إذا لم أعرف له حقه، ولم أؤد إليه ما ينتظر أن أؤدي إليه، فلا بأس عليك، ولا بأس علي، ولا بأس على رعيّتنا من هذه الخطة التي اتخذتها، وانظر! فهذا وزيرنا قد أقبل ينبئنا بأن عدونا قد قبلوا ما فرضنا عليهم من شرط، وهم يريدون أن ننظم وفودهم علينا واستقبالنا لهم.»